دولة من أجل الدين
أم دين من أجل الدولة ؟

الدولة لابدّ لها من تنظيم أو حزب سياسي ، وليس هذا من الدين في شيء ؛ لأنّ عدم وجود التنظيم السياسي لا يعني انعدام النظام في الحياة . فالتنظيم أو الحزب في الدولة إذا كانت له الغلبة أو القوة فهو الحاكم على المجتمع في نظرهم ، فمَن لَم يكن عضواً فيه فهو – وإن كان مُسلِماً – مواطن من الدرجة الثانية ويُنظَر إليه بعين الريبة مِن قِبَل الدولة أو الحاكم حتى ولو كان من أبناء الرسول صلى الله وبارك عليه وآله!

لقد أوضح النبي صلى الله وبارك عليه وآله أنّ التنظيم الهرمي ليس ديناً حين عيَّن في أواخر أيامه الشريفة أُسامة ابن مولاه زيد قائداً وأميراً للجيش ، وهو ابن العشرين سنة وتحت إمرته أبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد – حتى لا يقول قائل : «إنّ فلاناً في الصحابة أرفعُ مكانةً من فلان» على أساسٍ تنظيمي ولا يقول قائل : «فلان أتقى من فلان» فهو أولى بالإمارة ، فالتقوى محلُّها القلب ولا يطَّلعُ عليها غير الله ﴿ . . هُوَ أَعْلَمُ

بِمَنِ اتَّقَى﴾[1] ، فلا يحقُّ لأحد أن يَصِفَ بِها جازماً أحَداً مِن الناس . ولا ينبغي أن تكون سبباً للإمارة والتسلُّطِ على خلق الله . كما أنّه لا يكون التسلط أو الإمارة على العباد دلالة على تقوى المتسلط أو الحاكم أو غزارة علمه إن لم يكن العكس ، لأنه يتتبّع عثرات المُكرَهين ، فقد صعد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله المنبر «فنادى بصوت رفيع وقال يا معشر من اسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثراتهم فإنه من يطلب عورة المسلم يطلب الله عورته ، ومن يطلب الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[2] .

ومَن يرى – مِن الذين يظنون أنّ الإسلام دولة – أنّ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لم يُكمِل إنشاء الدولة الإسلامية ، حيث إنه لم يعمل تنظيماً سياسياً أو مؤسسات ، فقد اتَّهم – بِفهمِه الخاطئ للرسالة – النبي صلى الله وبارك عليه وآله بالتقصير في أداء رسالته ؛ بل وقد اتَّهمَ الحقَّ سبحانه في إكمال الدين فإنّ الله سبحانه قال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[3] ولا إضافةَ في أمرٍ بعد إكمالِه . وربما يُظَنُّ كذلك أنّ من جاء

---

(١) سورة النجم : ٣٢ .

(٢) صحيح ابن حبان .

(٣) سورة المائدة : ٣ .

بعده وأقام مؤسسات الدولة له الفَضلُ في توسيع الدعوة والرسالة! وهذا هو الوقوع في الخطأ القاتل لأنّ الرسالة لا علاقة لها بإنشاء الدولة ، إنما الدولة شأن إداريٌ سلطوي دنيوي ينشئه الناس لتنظيم حياتهم في أمورهم الاجتماعية والمعيشية كالتعليم والصحة والمواصلات والاتصالات . .إلخ . فالدولة تحصرها حدودٌ جغرافية وهناك دول أخرى تُناصبها العداء ؛ والدِّينُ لا حدود له ، ولا يُعادي صاحبه الذي يدعو به أحداً ، لأنه صالح الأخلاق التي لا تعرف المُعاداة . . قال تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1] - قال تعالى نافياً للحدود الجغرافية : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2] وما ذلك إلا بالبلاغ فقط للناس كافَّة ، الأحمر والأسود دون حَصر أو تمييز أو حدود ، لا بإنشاء دولة محدودة لإجبارهم على الشرع وإكراههم على أداء ما طُلبَ منهم باسم الدين! فإنَّ هذا ما يرفضه الدين ويُنكره ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[3] فأصل الدعوة هو التبليغ لإتمام صالح الأخلاق ، فمن شاء أن يتحاكم إلى ما شرع الله فقد أسلم وجهه لله ويرجو من الله الفوز في الآخرة ، ومن لم يُرِد فهو وشأنه ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ .

(٢) سورة سبأ : ٢٨ .

(٣) سورة يونس : ٩٩ .

شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] . فأنزَل الله الشرائع للتعبُّد بها ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] وذلك باتِّباع التشريعات التي أنزلها على رسله ، ورغم ذلك لم يطالبهم بالعصمة – لأنّهم ليسوا ملائكة – بل طلب منهم الاستغفار عند حدوث الزلل : الأمر الذي ينعدم عند الحكام وأصحاب السلطان . والعبادة هي اتِّباع الشرائع وهي الدين ؛ قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله : «أحَلُّوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[3] . وليس على الرُسل إلا تبليغ الشرائع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[4] .

وجَعَل الله الشرائع للناس لأنها أقرَب الطُرُق الموصلة لمعرفته تعالى ، وشَرَعها لهم رأفةً ورحمةً بهم حتى لا يتيهوا في سلوك الطريق الموصلة إليه ﴿إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5] . والالتزام بها هو العبادة ، فهي الدين الذي جاء به كلّ رسل الله

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٦ .

٣) تفسير ابن كثير .

(٤) سورة النحل : ٣٥ .

(٥) سورة البقرة : ١٤٣ .

صلوات الله عليهم ، وهي ليست محصورة في الصلاة والصيام والعبادات الشخصية فقط لأنها منهج الحياة الكامل للفرد الصالح . وقد فَسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي «ليعرِفون» ، وغاية المعارف هي معرفة الله سبحانه . فانتفى الإكراه في الدين – الذي هو الشرائع – لتكون المَعرِفَةُ مطلوبةً بمحبة واجتهاد ، ولا يُجبَر عليها أحدٌ ، بل يتسابق إليها الناس ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2] ؛ لأنها أنفَس الغايات ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[3] وتبع الشرائع التي أنزَلَها الله على رُسُله في كُتُبه المُقدَّسة ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[4] . فالذي يضع قَدَمَه في معراج المَحَبَّة فلا سَقف ولا مُنتهى له ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[5] ﴿. . . وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[6] .

ومن يظن أن الدولة هي الأساس لقيام الدين فلم يفهم الدين أصلاً ، بل جعل السياسة والسلطان حاكماً لقيام الدين ، وبهذا المفهوم يتبنّى إكراه الناس على الدين وهو الفهم المغلوط

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة المطففين : ٢٦ .

(٣) سورة الأعلى : ١٤ .

(٤) سورة الأعلى : ١٨ – ١٩ .

(٥) سورة النجم : ٤٢ .

(٦) سورة يوسف : ٧٦ .

بل المعكوس تماماً . وأهل هذا الفهم هم الذين يظنون أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنما أنشأ الجماعة المُسلمة أولاً بالحِكمَة والموعظة الحسنة لتَقوى شوكتُهم ، ثم نَشَر الدين بعد ذلك بالسلطان والقهر!! وبهذا المفهوم يكون عندهم الرسول صلى الله وبارك عليه وآله قد وضع لهم الأساس للدين – الذي في مفهومهم الفاسد هو الدولة – ليقوم الذين مِن بعده بتطويره بِعَمَلِ تشريعاتٍ وفِقه يُفرَض على الناس ، ويقيموا المؤسسات والحِزب أو التنظيم ويؤَدّوا الرسالة ويُكْمِلوا – في نظرهم – ما لم يفعله النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، للحفاظ على الدين ونشرِه ، فيكون مَن يؤسِّس الدولة هو المرجعية في الدين عندهم ، ولو كان أقل عِلماً من الآخرين ، وعلى أكثر الناس علماً في رعيّته أن يدين له بالولاء والطاعة وإلا كان من الهالكين أو المُنَكَّل بهم! وعلى الناس اتباع أوامره كأنها دين وسُنَن يجب اتِّباعها كسُنَن النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وربما يقولون إنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله أَمَر باتِّباعها!! وهي نظرية ابتدعوها من عند أنفسهم لا يسندهم فيها إلا حب التسلط على الناس بإنشاء الدولة وفرض ما يريدونه عليهم وكأنه أمرٌ ديني! بينما الدولة ليست هي الدين الذي أَرسَل الله به رسله . ويظن بعضهم أنّ النبي إنما جاء بالرسالة ليُسلِّمها لغيره ليقوم الناس بعد ذلك بتطويرها والحُكم بها على الناس ؛ ومَثَلُه عندهم كمن أُعطيَ شيئاً ليوصله لغيره ، فلا ميزة له على غيره من الناس عندهم .

والذي يظن أن الدولة هي الدين فقد أخطأ فَهْمَ الدينِ من بدايتِه ، إما جهلاً أو عمداً ، فالدولة لا تقوم إلا على السلطان والمالِ ، والإكراه هو العروة في ذلك . فلا دولة بلا إكراه للناس على شرعها ، والدين لا يقوم بالمال ولا السلطان كما أنّه لا إكراه في الدين للناس كما أمر الله سبحانه في مُحكَم تنزيله ، فالتباين بينهما واضح . وعلى الرغم من هذا الوضوح بأنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله لم يُرسَل بإنشاءِ دولة أو لعمل حكومة إنما لمُجرّد تبليغ الشريعة ، وعلى الرغم من أنّه لا يوجَد مُسلمٌ واحد يقول إنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان حاكماً أو أميراً أو سُلطاناً ، مازال بعضٌ ممن طغى عليهم حُب السلطة ، يرى أنَّ إنشاءَ الدولةِ أمرٌ مُستَبطَنٌ في الرسالة ، لرعاية الشرائع بعد تبليغها ولمتابعة تنفيذها!! ويظنّ أنّ هذا الاعتقاد لا ينفَكّ عن الدين إن لم يكن هو الدين نفسه!! لا يسنده في ذلك إلا هوى مُتَّبع وجهل مُشاع .

ولو كان التسلط والقهر والسيطرة من لوازم الدعوة ، لأنشأ الرسل صلوات الله عليهم دولاً وحكومات من أجل ذلك ، ولما بدأ خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله الدعوة سراً . فلا توجد قوة على وجه الأرض أكبر من تلك التي مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، فهو رسول رب العالمين للناس ، والذي أرسله لا شك حافظُهُ وناصِرُهُ وحافِظٌ دينَه ، فكان يمكن أن يقول للناس إني رسول الله إليكم ومن لَم يؤمن بي وينفذ ما آمره به نكَّلتُ به وفعَلْتُ به الأفاعيل . وقد أظهر الله سبحانه

الاستعداد بتلك القوة للمواجهة حين استدعى الأمر ، فهدَّدَ بها مَن أرادتا التظاهُر على رسوله رغم خصوصية العلاقة ، وهي قوة لا كشُرطة مُكافحة الشّغب أو الاحتياطي المركزي أو الأسطول السادس ، إنها قوة لا قِبَل للعالَم كله بها ، فقال عزّ من قائل وهو ذو القوة المتين : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1] . فإنّ القوة الإلهيَّة فاعلة في الدنيا والآخرة ، فَضَرَب الله مثلاً لذلك لِمَن أراد التظاهر على رسوله ، بذكر ما فَعَل لمن آذى رُسُلَه السابقين ، فقال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[2] رغم خصوصية الزوجية .

---

(١)سورة التحريم : ٤ .

(٢) سورة التحريم : ١٠ .

سُنَّة الخلفاء الراشدين !

نجد أنّ تفكير القوم في إنشاء الدولة وقيام السلطان قد بدأ التحزُّب إليه قبل رحيل النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وبمَعزل عنه ؛ فقد جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنه قَالَ : «كُنَّا نَقُولُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ : أَبُو بَكْرٍ ,ثُمَّ نَقُولُ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ مَنْ يَكُونُ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ : عُمَرُ بن الْخَطَّابِ ، ثُمَّ نَقُولُ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ قُبِضَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ مَنْ يَكُونُ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ : عُثْمَانُ .»[1] وبعد انتقال النبي صلى الله وبارك عليه وآله مباشرةً ، وقَبل تجهيزه – كما كان قبل انتقاله – هَمَّ القوم بقيام الدولة واقتسام السلطة : «نحن الأُمراء وأنتم الوزراء»[2] ، وقال آخر : «منّا أمير ومنكم أمير»[3] ، فهل هذا هو الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله؟

---

(١) المعجم الكبير للطبراني .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) صحيح البخاري .

وظنّوا أن الدين هو الوزارة والإمارة وقيام الدولة والسلطان . ذُكِر أنَّ أبا سفيان حينما رأى جيش النبي صلى الله وبارك عليه وآله الذي جاء به لفتح مكة قال للعباس : «يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً ، فقال ليس بملك ولكنها النبوة»[1] ؛ فكانوا يرون الدين الذي أَرسَل اللهُ به رسولَه لحُرية الإنسان وكرامته – لضيق أفقهم وطمعهم بالدنيا– أنَّه مُلكٌ وإمارةٌ وتسلُّط! بينما مِن ﴿ . . حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِه ﴾[2] تبليغ الرسالة وتبيين الشرائع التي هي حكم الله وتذكير الناس بها وإنذارهم من مخالفتها ، ولا تتعدّى ذلك إلى السيطرة عليهم وتكوين الإمارة والوزارة باسمها ومعاقبتهم على عدم قبولها .

فطُلِبت البيعة بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله لغَرَضِ السلطانِ والإمارة ، حتى ممّن كان أكثر الناس عِلماً بالدين ، مما يوضح أنّهم قد فَهموا – أو أرادوا للناس أن يفهموا – أنّ الدين هو الإمارة والدولة ، وأنّ الأحكام والتشريعات – التي هي الدين– هي المبرِّرة لقيام الإمارة أو الدولة ، وأنّ حكم الله – أي شرعه تعالى – يحتاج إلى وكيل للحفاظ عليه من جنوح البشر عنه . لذلك كان عندهم قيامُ الدولةِ أفضلَ مِن تجهيزِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله – أي أن الاهتمام بقيام الحُكم أفضل

---

(١) مجمع الزوائد .

(٢) سورة التوبة : ٩٧ .

وأهم من الاهتمام برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله – بمعنى أنّ الاهتمام بتجهيز حاكم للمسلمين أفضل من الاهتمام بتجهيز رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ؛ إذ سرعان ما انقلبوا على رسول الله ، لهثاً وراء السُلطة والحُكم ، فلَم يحضُروا الصلاة عليه ولا دَفنه ، وصارت الأفضلية عندهم «للحي» وقالوا : «من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات»[1] . فصدرت الفتوى بذلك منهم وظنوا أنهم أحرَص على الدين ممن جاء به ، كأن مَن جاء بالدين قد انتهى دورُه برحيله ، وصار الأمرُ لَمن بَعده ليقوم بالرسالة – التي في مفهومهم هي الدولة – بينما لَم يَبق شيءٌ من الرسالة ليَقومَ به أحد ، وإلا لكان صلى الله وبارك عليه وآله استَخلَفَ من يُكمل الدين من بعده ، وهذا فيه اتهامٌ بأنّه لم يُبلِّغ الرسالة ويؤدِّ الأمانة ، كما أنه شكٌ في قول الله تعالى الذي أكَّد فيه اكتمال الدين وعدم حاجته لإضافة من بَشَر – خليفةً كان أو أميراً – ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2]! والله سبحانه يقول : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾[3] . فإن كان الغرض الحفاظ على الدين بمعنى ما أنزله الله ، فذلك أمْرٌ عند الله وهو الذي تكفل به حيث قال :

---

(١) السُّنن الكُبرى للبيهقي .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣)سورة الكهف : ١٧ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ، وإذا كان القصد الحفاظ على إيمان الناس لهدايتهم فالله سبحانه يقول : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2] ويقول جلَّ شأنه : ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾[3] . فإن كان كل ذلك معلوماً لديهم فإنَّ القصد يكون هو السلطة وإقامة الدولة باسم الدين رغم وضوح هذه الآيات ، وإن لَم يكُن مَعلوماً لديهم ، فكيف يطلبون الإمارة باسم الدين ولا علم لهم؟!! وإلا لماذا يُطلب من أكثر الناس علماً بالدين بعد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وهو سيدنا علي عليه السلام[4] أن يبايِع مُكرَهاً؟ وعلى ماذا يُبايع؟ من المؤكَّد أنهم ما كانوا ليُفيدوه ببيعتهم عِلماً بالدين أو فقهاً زائداً في شرائع الإسلام ، مما يؤكِّد أن البيعة لم تكن إلا لغرَض السلطان على الناس والتأمُّر عليهم . ولا يمكن أن يقال إنّ محاولة إجبار علي عليه السلام على البيعة كان حفاظاً على الدين!! فلا يُعقَل أن يكون علي عليه السلام مُتَّهَماً بِنَقضِ عُرى الإسلام وهَدم الشرع وما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، فيُجبَر

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٣)سورة النحل : ٣٧ .

(٤) قال صلى الله وبارك عليه وآله : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» – المستدرك على الصحيحين .

على البيعة للطاعة حتى لا يفعل ذلك!!

وإذا كان علي عليه السلام متَّهماً في دينه فمن هو الذي يتهمه بذلك؟! اللهم إلا إذا كان الدين عندهم هو السلطة كما فهموه أو أرادوا للناس أن يفهموه كذلك ؛ فمَن خالَف السلطان عندهم فقد خالَف الدين! والنبي صلى الله وبارك عليه وآله لم يطلب البيعة حتى ممن أراد أن يدخل الإسلام ، إلا أن تكون عن طواعية ، وما كان يطلب بيعةً – لا طواعيةً ولا إكراهاً – من الذين أسلموا من أجل أن يطيعوه – فقد أطاعوه حباً ، وهذه من حدود ما أنزل الله على رسوله . وعليه فما لم يكن لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فلا ينبغي أن يكون لغيره ؛ فلا يُكرَه أُناسٌ من المسلمين على بيعةٍ لمُسلم مثلهم ، وإن ظُنَّ أنه لم ينضج إسلامهم بعد أو كان هنالك شَكّ فيما هم عليه من الدين . والبيعة لا تُفرَض حتى على غير المسلمين – كما حصل في فتح مكة – ناهيك عن مَن شَهِد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله وصَحِبَ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله عشرات السنين .

إنّ فرض البيعة على الناس – مسلمين كانوا أو مشركين – أمرٌ لم يأت به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . فلا ينبغي لأحدٍ من بعده أن يفرضه باعتبار أنّه الدين! فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله قال لكُفار مكة ومُشركيها بعد فَتحِها : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1] وكان فيهم معاوية وأبوه أبو سفيان – لذلك

(١) سنن البيهقي الكبرى .

وَصَف سيدنا علي عليه السلام معاوية بأنّه طليق بن طليق[1] – ولم يَطلُب منهم النبي صلى الله وبارك عليه وآله بيعَة ، فتبرير إكراه الناس على البيعة لا يَقومُ أصلاً ولا يوجد له وجه في الدين . بل ظلَّ أبو سفيان يأخذ من الزكاة من سَهم المؤلفة قلوبهم إلى أن منع ذلك عمر . واعتبَر عمر فَرضَ الله لَمن يستَحِق الزكاة رشوة على دين الله ، وكان يرى أنَّ الدينَ ذَليلٌ على عهدِ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، وأنَّ سَهمَ المؤلفةِ قلوبهم رشوة عليه ؛ إذ إنه تَفَل ومزَّق كتاب أبي بكر الذي اقتطع فيه أرضاً لينتفع بها عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، وقال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل ، وإن الله قد أعزّ الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما»[2] . وقد ورد عن عمر أنه قال في زمن خلافة أبي بكر : «الإسلام أعزّ من أن يرشى عليه ؛ فإن ثبتُّم على الإسلام بغير رشوة فبها وإلا فبيننا وبينكم السيف»[3] .

لا يكون المقصود من إجبار المسلمين وصحابة النبي على البيعة إلا فرض الحُكم والتسلُّط والإمارة ، حتى على باب مدينة العلم ، علي عليه السلام . وتم تكوين الدولةَ بمُبرِّر الحماية

---

(١) وقعة صفين .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي .

(٣) تفسير حقي .

للدين والحفاظ عليه وهي رؤية يظنونها «أكمل» من تلك التي ارتضاها لنا رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . فلم يكن ذلك لتعليم الناس الدين ؛ إذ لم يُضيفوا جديداً للدين الذي بلَّغَه وأكمَلَه النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وما ينبغي لهم ، ولا لنشره ؛ لأنَّ الإكراه ليس من الدين وليس وسيلةً ارتضاها النبي صلى الله وبارك عليه وآله لنشره ولم يؤمر به . فتبريرهم لإكراه الناس على البيعة بغرض حماية الدين لا يسنده القرآن ولا تسنده سُنّة النبي صلى الله وبارك عليه وآله وسيرته . والإكراه لا يكون مِن صاحبِ خُلُقٍ عظيم أصلاً ، فانتفى أن يكون مما بُعِثَ به نبي الرحمة الذي بُعِثَ ليتمم صالح الأخلاق ، بل هو خروجٌ عنه ؛ قال تعالى : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] .

ومعلومٌ أن الرسل صلوات الله عليهم ، ما عليهم إلا البلاغ – لا أكثر – وهذا هو ما قام به الرسول محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[2] ، ولَم يكن مَلِكاً ولا سُلطاناً ولا أميراً – كسائر الرُّسُل صلوات الله عليهم – وهو ما يجب أن يكون عليه من يَنذُر نفسه للدعوة مِن بعده ، ولا يتعداه . فكان واجب الذين يأتون مِن بعده ، الدعوة بالحكمة والموعظة الحسَنة لمن لم

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

يؤمنوا ، ولا يتعدُّوا ما كان عليه النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومَن سَبَقَه من الرُّسُل ، وهو القيام بالتبليغ فقط دون إكراهٍ للكفار والمشركين . ولا مُبَرِّر لوجودِ دعوةٍ لمن أسلَمَ إلى الإسلام . وما كان ينبغي طلبُ بيعةٍ للطاعة ممن أسلموا وإجبارهم عليها ، وإلا أُحرِقَت عليهم ديارهم[1] ، فإنّ ذلك لم يكن من نهج الرسول صلى الله وبارك عليه وآله .

فأُعطِيَت القداسة التي كانت لِذاتِ الرسولِ صلى الله وبارك عليه وآله ولتشريعاته بِفَرضٍ من الله سبحانه – والتي لا تجوز لغيره – للسلطان أو الحاكم ، حتى أصبح تشريع الحاكم هو الساري وهو الدين عندهم ، وإن خالف تشريعُه تشريعَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله! فلا يوجد سند من النبي صلى الله وبارك عليه وآله على إجبار الناس على إخراج الزكاة أو قتالهم على ذلك . كذلك لا يَحِقُّ لأحَد أن يَمنَعَ الزكاة مِمَّن فَرَضَها اللهُ لَهُم ، كَسَهمِ المؤَلَّفةِ قلوبهم ، ويقول إن ذلك رشوةً في دين الله! ولا يحق لأَحد أن يغيّر حداً من حدود الله ، كأن يرفع حدّ شرب الخمر من أربعين إلى ثمانين جلدة . فالدين قد صار عندهم للسلطان لرؤيتهم للدين أنه حكمٌ وسلطان . أمّا مكانته صلى الله وبارك عليه وآله ، والتي لا تجوز لغيره ، فقد جعلوها لكلّ من يستطيع أن يُكرِه الناس على البيعة ، وأصبح رأس

(١) ذكروا أن عمر أراد حرق دار فاطمة عليها السلام إن لم يخرج من فيها لمبايعة أبي بكر – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

الدولة هو الدين عندهم ، ويُمكنه أن يُشَرِّع ويُغَيِّر في التشريع ، حتى ولو كان تشريع المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله . ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[1] وما حكم الجاهلية إلا التسلط وتقديس الحكام وأوامرهم واتباعهم وهو الطاغوت .

أمَرَ اللهُ نبيه صلى الله وبارك عليه وآله أن يدعو الكفار والمُشركين بالحِكمة والموعظة الحَسَنة دون إكراه في تبليغ الرسالة وما كان يأمر أَحداً أن يشهد ألا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله . أما الذي أَخَذَ البيعة بعده من الناس لم يَدْعُ المشركين والكفار بالحكمة والموعظة الحسنة ، بل ولا حتى الذين شهدوا ألا إله إلا الله لم يجدوا المعاملة بالتي هي أحسن ؛ إنما ووجِهوا بالسيف ؛ وقُتل ذلك المسلم – مالك بن نويرة – الذي أحجم عن دفع الزكاة للحاكم ، وسُبيَت زوجته ونكحها خالد بن الوليد في الليلة نفسها ، وتلك حكاية تحتاج إلى تأمل طويل لا مجال له هنا ولكن نقول باختصار إن كان تَزَوَّجَها تلك الليلة فالأمر لا يستقيم إذ هي في حالة حداد وفترة عدَّة ، هذا إذا افترضنا جدلا أن امرأة تقبل الزواج طوعاً مِن قاتِلِ زوجِها ودمه لم يجف بعد . .! ، وإن الأمرُ نكاحٌ قسريٌ فذلك والعياذ بالله نوع من السفاح والاغتصاب وله أحكامه ، وعلى كل حال فقد أنكر هذا الفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وطلب من أبي بكر رضي الله عنه معاقبته ، وقال لخالد «قتلت امرأ مسلما ثم نزوت

(١) سورة المائدة : ٥٠ .

على امرأته والله لأرجمنك بأحجارك»[1] . فشهادة عمر رضي الله عنه بأنه «امرؤ مسلم» تنفي عنه الرِّدَّة التي قالوا إنّ الحروب قامت من أجلها ، وكلمة «نزوت» هنا بالغة التعبير عن الحالة ، ولكنّ أبابكر رضي الله عنه رَفَض معاقبة خالد ؛ حتى عمر نفسه رضي الله عنه حينما صار حاكماً لم يعاقب خالداً واكتفى بعزله من قيادة الجيش ؛ لأنّ الحاكم كما فُهِم عندهم يفعل ما يراه ، فصار حُكمُه عندهم مُقدَّساً وأمرُه تشريعاً ، ولا يتقيَّد بتشريع مَن سَبَقَه ولو كان معصوماً! فإنه لم تقم دولة باسم الإسلام – مَنذ السقيفة – إلا وسُلِبَت فيها الحُرِّيات منذ البيان الأول ، وقامت على القهر وإجبار الناس على ما عليه رأس الدولة ، ومنع الحرية ، والحَجْر على أصحاب الرأي المخالف وعدم قبول الآخر . ولهذا نجد طائفةً من المسلمين يرون في بيانِ أولِ دولةٍ باسم الإسلام إعلاناً لعهدٍ جديدٍ وسُلطة مُطلَقةٍ باسم الدين ، بسُنَنٍ جديدة لا يُلزِمُها ما سَبَقها من سُنَّة محمد صلى الله وبارك عليه وآله – «من كان يعبد محمداً ، فإنّ محمداً قد مات»[2] . وهذا يتناسق مع إنشاء الدولة ، لأنه لابد لها من سُلطةٍ وإجبارٍ للرعايا على ما عليه الحاكم ، وهو مُعاكِسٌ للدين الذي لا إكراه فيه . وجاءوا بحديث نَسَبوه للنبي صلى الله وبارك عليه وآله «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها

(١) تاريخ الطبري .

(٢) صحيح البخاري .

بالنواجذ»[1] . ولكن مما يُضعف هذا الحديث أنّ عدد هؤلاء الخلفاء الراشدين لم يُحدَّد - إذا صح عندهم إسناد هذا الحديث - ولم تُحدَّد صفاتهم المميِّزَة لهم ، لا بقرآن ولا بحديث!! ويبقى مَن هُم الخلفاء الراشدون وكم عددهم أمراً مُبهَماً ؛ مما يجعل الحديث المنسوب فاقداً للتطبيق في الواقع!! أو يكون كلُّ حاكم مسلم خليفةً راشداً ، وتشريعُه سُنَّة!! بينما السُنَّة هي ما فعلَه رسولُ الله صلى الله وبارك عليه وآله أو قاله أو أقرَّه . ويبقى التشريع الإسلامي في ضوء هذا الحديث هو تشريع الحُكّام في كل زمان . .!! ونكون بذلك جعلنا الحكام أنبياء ورسلاً ، لهم سُنَن كما للنبيّ صلى الله وبارك عليه وآله!! وتكون الشهادة عُدِّلت إلى «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً وبعض أمته رسل الله»! لأنّ لهم سنناً يجب اتّباعها كما لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! ونزعم أنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله قد أوصى باتِّباعها وهذا يثبت لهم العصمة التي لا تجب إلا لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! ويكون هناك شرك في الرسالة وأندادٌ لرسول الله كما أشرك الأولون في الألوهية وجعلوا أنداداً لله!! والأخذ بهذا الحديث يعني أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله قد أعطى الحق لغيره في نسخ سنته ورفع صوته عليه!! وأنّه ترك شيئاً في الدين لم يوضحهَ ، أي أنه لَم يُبَلِّغ الرسالة كاملةً ولم يؤدِّ

---

(١) صحيح ابن حبان .

الأمانة . وعَجزَ – وحاشاه – عن إكمال تبيينها ، ليكملها من بَعدِه أناسٌ أَوكَلَ إليهم ذلك ، ولم يُحَدِّدهم ولم يُسَمِّهم . وعلى الناس أن يجتهدوا – وكيف يجتهدون ويبحثون؟ – للتعرُّف عليهم ، ليأخذوا منهم ما تبقّى من السنّة في الدين!!! وأين كل ذلك من قول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا﴾[1]؟ وإذا كان هناك خلفاء راشدون يجب اتِّباع سنتهم ، وسَمع الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ذلك الحديث من النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، فذلك يعني أنّ أبابكر رضي الله عنه ليس خليفةً راشداً يجب اتباع سنته ؛ لأنّ عمر رضي الله عنه رفض أن يأخذ بما كان عليه أبو بكر . فقد رَفَعَ حَدَّ شُربِ الخَمرِ من أربعين ضربة بالجَريد والنّعال إلى ثمانين جلدة بالسّوط ، مُخالفاً بذلك ما كان عليه أبو بكر في اتِّباعه سنة النبي صلى الله وبارك عليه وآله . وخالَفَهُ أيضاً في أمر متعة النساء ومتعة الحج إذ لم يُحرِّمهما أبو بكر ، وقال : عمر «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما أو أعاقب عليهما : أحدهما متعة النساء فلا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته في الحجارة ، والأخرى متعة الحج افصلوا حجكم عن عمرتكم ، فإنّه أتم لحجكم وأتمّ لعمرتكم»[2] ، فلو سلمنا بأن هذا الزواج زنا – كما

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

(٢) معرفة السُّنن والآثار للبيهقي .

يرى هذا الحديث المنسوب لعمر- فإن حكمه لا يكون الرجم بالحجارة بالضرورة . كما نُسب إليه قول : «والله إني لأنهاكم عن المتعة وإنها لفي كتاب الله ولقد فعلها رسول الله»[١] ، وإنّه لأمر عجيب أن يُنسَب لعمر رضي الله عنه رفضُه لما في كتاب الله وما فَعَله رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! . وعجيبٌ أيضاً أن يوردوا في حَقِّه قولَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله حينما سَمِعَه يُصلّي بالناس : «يأبى الله ذلك والمسلمون»[٢] ، مما جَعَل بعضَ المسلمين يَذهب إلى أنَّ حديث النبي هذا مَنع لعُمر من الإمامة مُطلَقاً! وعجيبٌ أيضاً أن يُنسَب لعمر رضي الله عنه أنه بالَغَ في كِتافِ عَم النبي العباس رضي الله عنه وكان يرجو قَتلَه مع الأسرى - حين كان بين أسرى بدر - حتى مَنَعَ أنينُ العباس النومَ عن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، فجاء الأنصار وفَكُّوا وثاقَه وحَرَسوه ، وقال له العباس : «أما والله يا عمر ما يحملك على شد وثاقي إلا لطمي إياك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[٣] . بينما دَفَع عبد الله بن أبي بن سلول قَميصَه للعباس حينما كان بين الأسرى[٤] ؛ لذلك لم يكُن غريباً أن يُعطي رسولُ الله صلى الله وبارك عليه وآله قميصَه

---

(١) السنن الكبرى للنسائي .

(٢) سيرة بن هشام .

(٣) كنز العمال .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد .

الشـريف ليُكَفَّن فيـه عبـد الله بن أبي بن سلول ، ويُصلى عليه[١] . وجاء في سيرة بن هشام أن عمر حين حَضَرته الوفاة قال : «إنْ أَسْتَخْلَفَ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منّي ، وَإِنْ أَتَرَكَهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منّي .) فَعَرَفَ النّاسُ أَنّ رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمْ يَسْتَخْلفْ أَحَدًا»[٢] وهذا يتناغم مع رأي عمر « . . إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة . .»[٣] . كذلك لا يكون عمر رضي الله عنه خليفةً راشداً يجب اتِّباع سنَّته ؛ لأنّ عثمان رفض أن يأخذ بما كان عليه عمر بن الخطاب في قصر الصلاة ، كما أعاد عثمان رضي الله عنه الوزغ[٤] طريد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله – وهو ما لم يفعله أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه – وأعطاه ألف دينار ومنحه أرض الفدك ، التي رَدَّها عمر بن عبد العزيز – الخليفة الخامس عندهم – إلى أبناء السيدة فاطمة عليها السلام ، مخالفاً أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه وعثمان رضي الله عنه ! وكذلك بالنسبة لعلي عليه السلام لا يكون أبو بكر وعمر رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين الذين لهما سُنَّة واجبة الاتّباع ، لأنه رفض الاقتداء بسنتهما حينما عَرَض عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك للخلافة ، وهو أحرص الناس على

(١) صحيح مسلم .

(٢) سيرة بن هشام .

(٣) صحيح البخاري .

(٤) الحَكَم بن أبي العاص .

الالتزام بأمر أخيه النبي صلى الله وبارك عليه وآله فقد قال صلى الله وبارك عليه وآله : «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1] ؛ فإذا سمع منه أمراً باتِّباع سنة خلفاء راشدين فلا يمكنه المخالفة أو الرفض لذلك الأمر .

وعليه فلا توجد سُنّةٌ ملزمةٌ مُتَّبَعة من أيٍّ منهم!! بل كلٌّ منهم خالَف مَن قبله ورَفَضَ العمل بما كان عليه!! وهذا كفيلٌ برد الحديث من الخلفاء الأربعة أنفسهم! ولكن ، على فرض صحة الحديث ، يبقى سؤالٌ تجاوزه الكثيرون ، ألا وهو هل الخلافة التي يُشير إليها الحديث المذكور تعني الحُكم والإمارة؟ أي بمعنى أنّ الخليفة هو مَن يَقهَر الناس بحُكمه ويأخذ البيعة منهم عنوة؟ أم أنّ الخلافة المعنية في الحديث – إن صَحَّ – هي المرجعية التي يحتاجها الناس ويرتضونها لِفَك ما يلتبس عليهم في أمور دينهم في تعاملهم مع خالقهم وتعاملهم الاجتماعي؟

---

(١) الترمذي .

القرآن والسلطان !

السلطان بمعنى الإمارة والحكم السياسي لا علاقة له بالدين : إذ أوضح النبي صلى الله وبارك عليه وآله التباين بينهما فقال : «إنّ الكتاب والسلطان سيفترقان»[١] وتَبع السُلطةَ إكراهُ الناسِ بالسيف على الطاعة إثر البيعة التي كانت فلتة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها»[٢] فقد انعقدت بيعة أبي بكر رضي الله عنه بأربعة خامسهم سالم مولى أبي حذيفة[٣] الذي وَرَدَ فيه حديث رضاعة الكبير[٤] ، وهو الذي قال فيه عمر رضي الله عنه حين حضرته

---

(١) مجمع الزوائد .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) الأحكام السلطانية .

(٤) صحيح مسلم - «جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ وَهُوَ حَلِيفُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضِعِيهِ قَالَتْ وَكَيْفَ أُرْضِعُهُ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ» .

الوفاة : «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته»[1] ؛ فهل كانت رضاعة سالم يا ترى ستصبح سنةً من خليفةٍ راشد؟؟ وقال عمر هذا على الرغم مما أوردوه من حديث «الأئمة من قريش»[2] الذي احتجوا به لإبعاد الأنصار عن الخلافة . ثم بعدها بُنيَت خلافة عمر نفسه رضي الله عنه على هذه الفلتة إذ عَيَّنَه أبوبكر رضي الله عنه دون استشارة أحَد ، ودون التفات لقول الله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[4] وبُنِيَت خلافةُ عثمان كذلك على هذه الفلتة إذ عَيَّن عمر ستة ليكون الخليفة من بينهم . فكان التفكير في السلطان والحُكم والإمارة ، لا في القرآن ، وقالوا : «إنّ الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن»[5]! وكيف يصحُّ ذلك والله سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[6]!! وقال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله في قول الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[7] «لو أن رجلاً موقناً بها قرأها على جبلٍ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب .

(٢) مسند أحمد .

(٣)سورة الشورى : ٣٨ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٥) ونُسب ذلك إلى عثمان بن عفان – قصص الأنبياء .

(٦) سورة الرعد : ٣١ .

(٧) سورة المؤمنون : ١١٥ .

لَزال»[1] فهل هناك قوة أكبر من هذه؟ وعلى الرغم من ذلك ، لَم تُسَلَّط تلك القوة الإلهية الموجودة في القرآن لإكراه الناس وإجبارهم على الدين . وقد يُرى في مقولتِهم تلك فساد في الاعتقاد ؛ إذ لو كان الحقّ فيما زعموا أي في تفوّق قوة السلطان على القرآن لَبَعَثَ اللهُ سبحانه رسولَه سُلطاناً بسلطة دنيوية يُكرِه الناسَ على دينِ الله ؛ لكن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله يَستَمِدُّ سلطته من الله ، وعلى الرغم من ذلك لَم يُكرِه أحداً . والحاكم أو الأمير يستمد سلطته ممن حوله ويُكره الناس على طاعته ، وهذا هو سُلطانه . ولكن أثبت الله سبحانه وتعالى في مُجريات الأحداث قَتل عُثمان وهو صاحب السلطان آن ذاك ، ولم يُغنِ عنه سلطانُه شيئاً ، وهو الذي نُسبَت إليه هذه المقولة . فَشَتَّانَ بين مُشَرِّق ومُغَرِّب! فلا توجد مُماثَلةٌ أصلاً ولا مُقارَنة بين النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومَن جاء بَعدَه مِن الحُكّام والأُمراء ؛ إذ الفرقُ شاسعٌ بين تبليغ بإحسانٍ دون إكراه ولا تسلُّط ، وبين دعوةٍ بإكراهٍ وإجبارٍ وتَسلُّط . . وجاءوا بحديثٍ نسبوه للرسول صلى الله وبارك عليه وآله : «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[2] ، والقرآن والسيرة النبوية يُنكِران هذا الحديث المنسوب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ، فلا نجِدُ في كتاب الله آيةً واحدة تُشير إلى

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) صحيح مسلم .

أمرِ الله للرسولِ بقتالِ الناسِ على الدين ، بل العكس تماماً ، حيث بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] وما كان من أمرٍ من الله سبحانه لرسوله الكريم هو ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] . قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله : «لا يخرج من هذا إلا حقاً» وأشار إلى فمه الشريف ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[3] ، ومُحال أن يكون في حديثه مخالفةٌ لكتاب الله عزَّ وجلّ . أما ما يراه البعض في معنى الآية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[4] فالقتال هنا باد من الطرف الآخر والمُسلمون مُعتدىً عليهم ﴿ . . يُقَاتَلُونَ . .﴾[5] ومع ذلك فهم مظلومون ، ولهذا جاء الإذن الإلهي بنَصرِهم ضد العُدوان ، لا بابتداءِ القتال والعدوان ، لأنّ الله ﴿لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[6] .

أما السيرة النبوية ، فلننظر فيها إلى الحروب ؛ فنجد أولاً تسميتها بغير مُسَمَّياتها ، فسمّوا المعارك التي كان النبي صلى

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) سورة النجم : ٣ .

(٤) سورة الحج : ٣٩ .

(٥) سورة الحج : ٣٩ .

(٦) سورة البقرة : ١٩٠ .

الله وبارك عليه وآله يدافع فيها عن المدينة غزوات : فمعركة بدر لم تكن غزوةً من أجلِ فَرضِ الإسلام ، بل كان القصد أولاً هو اعتراض عير قريش القادمة من الشام كما أوضحنا . ولكن جاء المشركون بجيشهم إلى المدينة بقَصدِ إذلالِ أهلها ، ففُرِضت الحرب على المُسلمين ، فكانت معركة بدر دفاعاً عن المدينة . فكيف جاز لهم تسمية حرب دفاعية بأنّها غزوة؟ وعلى الرغم من أنّها قد رَفَعَت مِن قَدرِ المسلمين وقوَّت شوكتهم إلا أنها لم تكن حرباً من أجل فرض الدين على الكفار ولا من أجل أن يقولوا لا إله إلا الله . ومعركة أُحُد كانت كذلك دفاعاً عن المدينة ، وكان الغزاةُ الكفارُ من قريش فكيف تسمّى غزوة إسلامية بمعنى أنّ الرسول هو الغازي وهو لم يكن حينها إلا مدافعاً ضد غزاة ؟ ومعركة الأحزاب أو الخندق كانت دفاعاً عن المدينة وكان الغزاة هم الأحزاب ، ولَم تكُن أيٌّ مِن هذه المعارك مِن أجلِ فرضِ لا إله إلا الله على المُشركين . وما سُمِّيَت «غَزَوات» إلا لتساعد على هضم الحديث المنسوب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[1] كما أنّهم لم يتورّعوا كذلك من أن ينسبوا إليه حديثاً لا يصلح إلا لعصابات النهب المُسلّح ، ألا وهو «جُعِل رزقي تحت رمحي»[2] .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) تهذيب الكمال .

والغزوة الوحيدة التي لم تُسمّ غزوة هي فتح مكة . . فهل أمَرَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله المهزومين فيها أن يقولوا لا إله إلا الله؟ فلو كان الحديث المنسوب إليه صحيحاً لكان أولُ ما يطلبه النبي صلى الله وبارك عليه وآله من أصحاب البلدة التي فتحها هو أن يقولوا لا إله إلا الله ، فقد جاءهم فاتحاً وانتصَر عليهم دون قتال ، فقد كان منصوراً بالرعب[١] . وما كان أَحَدٌ يمكنه رفض قول لا إله إلا الله إذا أمَرَهُم بها ، ولكنه صلى الله وبارك عليه وآله – وهو صاحب الرسالة – لم يكن ليخرج عن حدود ما أنزل الله على رسوله وهو ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢] ولذلك تبرّأ صلى الله وبارك عليه وآله من قَتْلِ خالد بن الوليد لبعض المُشركين في مكة ، وقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[٣] لقتله أولئك النفر من المشركين ، وأَمَر علي بن أبي طالب عليه السلام أن يَدفع ديَّتهم[٤]! فلو قال الرسول صلى الله وبارك عليه

---

(١) قال النَّبِيَّ صَلَّى الله وبارك عليه وآله «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» – صحيح البخاري .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٣) صحيح البخاري .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي .

وآله لأهل مكة المشركين ، وهو مُنتصِرٌ عليهم وهم مهزومون أمامه ، قولوا لا إله إلا الله لقالوها دون تردُّد ، ولكن كان هذا يعدّ نوعاً من الإكراه لا عن طواعيةٍ واختيار - الذي هو الأساس في الدين - فقال لهم نبي الرحمة : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1] وهنا يجب على كل مسلم أن يسأل هذا السؤال : لماذا فَتَح النبي صلى الله وبارك عليه وآله مكة؟

لو كان الحديث المنسوب إليه «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . .»[2] صحيحاً لكان أول ما يطلبه مِن الناس هو أن يقولوا : «لا إله إلا الله» ، ولكنه لم يطلب منهم ذلك ، فَثَبُتَ أنَّ هذا ليس هو أسلوب الدعوة إلى لا إله إلا الله فكيف يقول أَحَد بعد ذلك أنّ الحرب هي وسيلة لنشر الدين وفرض الإسلام على الناس؟ فهل كان فتح مكة غير إزاحة طاغوت الجاهلية - الذي يَفرض الدين على الناس- ومنح الحرية للجميع ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[3]؟ ولا مجال لمقولة «فتوحات إسلامية» بغرض فرض الإسلام على الناس!! . إنما كان فتح مكة درساً عملياً لِمن يرى أنّ الدعوة إلى الإسلام إنما تكون عن طريق الحرب أو الإكراه .

جاء الإسلام بالحرية الكاملة للإنسان ، ليعتنق ما شاء من

---

(١) سنن البيهقي الكبرى .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

الدين والفكر ، مع التزامه بصالح الأخلاق التي هي الغاية من الرسالات ، وساوى بين الفقير والغني ، والضعيف والقوي ؛ فالإنسان إنسانٌ بفكره وعقله لا بتسلُّطه وجبروته وماله . وهو أمرٌ مُغايرٌ تماماً لما يكون عليه الحُكام من إجبار الناس وحملهم على ما هم عليه . فأئمّة الكُفر في مكة كانوا يحجرون على الناس حرّيّة الفكر والدين ، ويمارسون أبشع أنواع الإرهاب الفكري لإجبار الناس على دينهم – وهذا هو حُكم الجاهلية الذي أنكَرَه الإسلام ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[1]؟ – حتى بلغ بهم التسلُّط قَتْل مَن يخالفهم الرأي في الدين ، فقد جاء أن عمر بن الخطاب قبل إسلامه كان يعذب جارية مؤمل بن حبيب بن عدي وتدعى لبيبة وقيل أمينة لإكراهها على ترك الإسلام . وكان يعذب جارية أخرى تُدعى زنيرة كان أبو الحكم يشاركه في تعذيبها وروي عنه أنه كان يكف عن ضربها إعياءً لا رحمةً[2] . وعُذِّب بلال وآل ياسر . وما كان أئمة الكُفر يحترمون عهداً ولا كلمة ، حيث نقضوا حلف الحديبية وناصَرُوا قبيلة بَكر وأغاروا معهم على خُزاعة التي كان بينها وبين المسلمين حِلفٌ وميثاق ، وقتلوهم داخل الحرم المكي! فاصطدم نهجُ الدينِ بهذا الطاغوت ، فكان لا بد من إزالته بقصد الحرية للإنسان ، لا بقصد فرض الدين عليهم . قال تعالى : ﴿فَقَاتِلُواْ

---

(١) سورة المائدة : ٥٠ .

(٢) سيرة بن هشام .

أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[1] . فكان القتال وكان فتح مكة الذي انتهى بأعظم مقولةٍ من أكرَم مُنتصر لمهزومين أمامه ، توضح عظَمة الفاتح وتعظيمه لحرية الرأي والفكر الإنساني ليعتنق الفرد ما شاء من الدين : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2] والخطاب هنا موَجَّه للمشركين ، أي ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[3] بعد إزالة طُغيان حُكّام مكة – أئمة الكفر الذين كانوا يحجُرون على حريةِ الفِكرِ ويمنعون الناس عن اعتناق ما شاءوا من الدين . وكان من المشركين يومها معاوية وأبوه أبو سفيان . ولكن رسول الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله قال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[4] ، مُبيناً لهم أن الغرض ليس القتال وإبادة الناس . فَظلَّ أبو سفيان من المؤلفة قلوبهم[5] ويُعطى من أموالِ الزكاة حتى أوقف ذلك عمر رضي الله عنه[6] . فما كان فتح مكة إلا لحرية الناس من الإرهاب الفكري وتحريرهم من حُكم الجاهلية والبغي والتسلُّط الذي يمنعهم حرية الاختيار واعتناق ما شاءوا من الدين ، وعقد ما

---

(١) سورة التوبة : ١٢ .

(٢) سنن البيهقي الكبرى .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي .

(٦) السنن الكبرى للبيهقي .

ارتضوا من الأحلاف والمواثيق . فجاء الأمرُ الإلهي ﴿ . . . إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ . . . ﴾[١] بمَنع المُشركين – ولا يمتد لغيرهم – مِن دخولِ المسجد الحرام لِعَدَمَ مُراعاتهم لحُرمَته واعتدائهم على المسلمين فيه – كما فعَلَت قبيلة بَكر وقَتلوا الخُزاعيين فيه – فالمشركون لا حُرمة لهم للدين وأهله ، وهم معتدون بطبعهم لعدم قبول الآخر ، قال تعالى : ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[٢] . فالأمر بالمنع من دخول المسجد الحرام موقوف على المشركين ولا يشمل أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم . والحرب في الإسلام لا تكون بقصد إجبار الناس وإدخالهم في الدين عنوةً ، فذلك أمرٌ لا يُقرُّه الإسلام بل يُعارضه تماماً ، فكان فتح مكة أعظم مثال للحرب في الإسلام إن كان لابد منها .

القتال لا يكون إلا لحرية الإنسان ولإزالة البغي والعدوان . قال تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[٣] ، فشُرع القتال هنا من أجل مُحاربة البغي والعدوان والتسلُّط ، حتى لا يكون هناك تسلُّطٌ على الحرية الإنسانية تنعدم معه مُراعاة الأخلاق في السلوك والتصرفات .

---

(١) سورة التوبة : ٢٨ .

(٢) سورة التوبة : ١٠ .

(٣) سورة الحجرات : ٩ .

فالحرب في الإسلام ، إن كان لابد منها ، فلا تكون إلا أخلاقيّةً لا عدوان فيها لأنّ الله لا يُحب المُعتَدين ، قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] ، والآيات التي جاءت بعد هذه الآية مرتبطة بها . فلا تُقرأ آية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾[2] بمعزل عنها حتى لا نكون من ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[3] ، فكيف جاز لهم أن يُسمّوا آيةً في كتاب الله بـ«آية السيف»؟ بينما ليس للسيف أصل في الدعوة إلى الله ، لأنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4] ، ولا بَغي فيها على العالمين .

ومِن الفهم الخاطئ – أو المُحَرَّف أو المُنحَرِف – للدين انطلق ما يُسمّى بالفتوحات الإسلامية والتي لا تَصِحّ تسميتها بذلك . فما هي إلا استعمار عربي لتلك البلدان الآسيوية والأوروبيّة والإفريقية . وما كان الإسلام المُحَمّدي مطروحاً بالسيف والعُدوان والغزو في عهد النبي صلى الله وبارك عليه وآله! ولكنّهم مَهَّدوا لغزوهم واستعمارِهم بتسمية الحروب الدفاعية للنبي صلى الله وبارك عليه وآله عن المدينة بالغزوات . وكان في فتح مكة ما يكفيهم في كيفية الدعوة إلى

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٣ .

(٣) سورة الحجر : ٩١ .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٦ .

الإسلام – إن كان نشرُ الدين هو القَصد ؛ فلم يكن فتحُها من أجل مغانِم ولا مَكاسِب ولا أسرى ولا فرضِ ضرائب أو جباية أموال ولا حتى فرض قول لا إله إلا الله . بل كان لإزالة طاغوت أئمة الكُفر الذين يُمارسون قمع الناس في حُريّة الفكر . كان الغَرَض تحرير الناس حتى يُمارسوا حياتهم الفكرية في حرية تامّة دون تَسَلُّط من الحُكام ، وهو إرساء قاعدة الإسلام الأساسية ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ليدخل من أراد أن يدخل في الدين عن رغبة وحب . ولم يكن سلباً للحرية وإكراهاً للناس على الدين ، بل هو العكس تماماً لما كان يُسمَّى بالفتوحات الإسلامية . لذلك ما كان ينبغي أن تُسمى تلك الحروب بالفتوحات الإسلامية ، إنما هناك استعمار عربي يتحمّل الغُزاة كُل ما كان فيه من مساوئ ، ولا علاقة للإسلام به[2] ، والإسلام بريء من عُدوانيته وكل مسالبه ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[3] . ولا يكون انتشار الإسلام بالسيف والغزو والتسلُّط والإرهاب الفِكري ، والذي هو أبعد ما يكون عن الخُلُق المحمدي وعن الدعوة التي جاء بها نبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله والتي بيّنها في قوله «إنما بُعثت لأتمِّم

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) وَرَدَ في كتاب البداية والنهاية أن المُغيرة بن شعبة تزوج ثمانين امرأة ، وقيل ثلاث مائة امرأة ، وقيل أحصن بألف امرأة . .

(٣) سورة البقرة : ١٩٠ .

صالح الأخلاق»[1] . فكُلُّ دعوة إلى الإسلام خارجة عن هذا الإطار فالإسلام بريء منها . فالإسلام ليس سُلطةً ولا تسلُّطاً ولا حكومة ولا تَجَبُّراً ولا إكراهاً ولا إذلالاً ولا تَعالياً على الناس ، إنّما هو شريعة ونظام حياة أنزله الله . والدعوة إليه لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا إكراه فيها ولا سلب لحرية الإنسان .

وقد كان كثيرٌ من تلك الحروب المُسَمّاة بالفتوحات الإسلامية ضد أهل دينٍ من رسالات الله المُنزلة ، وما جاء الإسلام المحمدي حرباً على الرسالات السماوية ، بل أكَّدَ احترام تلك الرسالات السابقة التي يجب ألا يكون فيها تفريقٌ بين الرسل ، كما يجب الإيمان بكتبها واحترامها . وقد جعَلَت تلك الحروب دين الله سبباً للقتل وسَفك الدماء ، بينما الدين عند كل الرسل هو الإسلام الذي لم يأت إلا بالسلام لإسعاد البَشَريَّة ولنشر السعادة والحُب بين الناس . وقد بيَّن الله سبحانه صحة العلاقة بين المُسلمين في كل الرسلات حينما وَعَد المُسلمين في المدينة بأنّ الروم – وهم أهل كتاب – سينتصرون على المُشركين في بِضع سنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[2] ، وهذا هو التعايش بين أهل الدين – يفرح المسلمون بالمدينة لانتصار الروم على الفُرس الذين سبق

(١) مسند أحمد .

(٢) سورة الروم : ٤– ٥ .

أن اعتدوا عليهم ، لوجود علاقة الدين الذي كله من عند الله ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ؛ إذ لابد للمؤمنين في كل الرسالات أن يكون لهم إعمار الأرض بما شَرَعَ لهم من الدين مكان الملل الكافرة ، وهو الاستخلاف الذي وعَد اللهُ عبادَه المؤمنين ليُمَكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2] ، ولا يعني الاستخلاف الإرث الحكومي السُلطوي ممن سبقهم ، بل يعني الخلافة الربانية لإقامة الدين الذي هو التعامل بما أنزل الله من التشريعات . فلم يَرث موسى عليه السلام حُكم فرعون ولم يرث إبراهيم عليه السلام حُكم النمرود ، وقد استخلفهم الله من قبل ومَكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[3] . ويرى البعض أن ذلك الاستخلاف سيكون عند ظهور المهدي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام[4] في آخر الزمان .

---

(١) سورة الروم : ٤٧ .

(٢) سورة النور : ٥٥ .

(٣) سورة المائدة : ٣ .

(٤) ويسند هذا الرأي حديث «لا مهدي إلا عيسى بن مريم» – سنن ابن ماجة .

دولة مدنية أم دينية ؟

قد يَفهم البعض أنّ الإسلام لا يعترِف بوجود دولة ، أو يرفُض تكوين دولة ، وهذا أمرٌ لا يقول به من يعرفُ حدود ما أنزَل الله على رسوله . فالأمرُ المرفوض هنا هو أن تكون هناك دولة باسم الإسلام أو الدين ، فالإسلام لا تُمَثِّله دولة ولا تُحدُّه حدودٌ كما ذكرنا . بل المطلوب هو قيام دولة مواطنة غير منحازة لدين ، يستوي فيها الناس مهما اختلفت عقائدهم ، ويكون منهجها الإصلاح ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] . فالشرط في بقاء النُّظُم والحكومات ونجاتها من الأمر الإلهي بالهلاك هو أن تكون صالحة . فالنَّظَر هو إلى صلاح القائمين بأمر تلك الحكومات أو النظم أو القُرى ، وليس النظر إلى دينهم . فشرط النجاة موفور لهم ولو كانوا مُشركين ، ما داموا مُصلحين ، كما بيَّنَت الآية الشريفة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾[2] ؛ والظُّلم هو

---

(١) سورة هود : ١١٧ .

(٢) سورة هود : ١١٧ .

الشِّرك ، قال تعالى : ﴿ . . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] . فالله سبحانه لا يُهلك القُرى لِشركِهم إذا كانوا مُصلحين . أمّا كيف التوافق بين وجود دولة والإسلام فهو أن يَعلَم الناس أن الإسلام هو التشريعات التي أنزلها الله وهي فوق كل تشريعات البَشَر ، ولا تتحكَّم بها الدولة أو تَتَّخذها أداةً للسيطرة - بمعنى أن الحاكِميةَ لله أو الحُكم لله ، فهو الحاكم بتشريعاته وهو الرقيب عليها ، وهو الذي يعاقب عليها في الآخرة أو يعفو - ولا يحق لبشر أن يكون حاكماً مُتسلِّطاً باسمها إلا أن يكون وكيلاً عن الله وهو المحال ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[2] فيستوي في الدولة رأسها وخفيرها . فإذا تعدّى الحاكم في الدولة على حدٍّ من حدود الله أو خالَفَ تشريعاً ، رُدَّ عليه ولا يُقبَل منه حتى من عامة الناس . فلا تنفي التشريعات الإسلامية وجود الدولة ، ويكون الفرد في الدولة التي الحاكم فيها التشريعات الإسلامية آمناً على نفسه ، عالِماً بحقوقه وحقوق غيره ، لا سُلطان لأحدٍ عليه بسببها ولا يخاف من حاكم ولا سلطان - وهي الحرية - بل خوفُه من الله سبحانه الرقيبِ عليه ، صاحب التشريع الحاكم ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[3] . والفَرقُ كبيرٌ بين أن يكون الله هو الحاكم بتشريعاته ، وبين أن يكون الحاكم شخصٌ مُتَسَلِّطٌ

---

(١) سورة لقمان : ١٣ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٣) سورة الفاتحة : ٤ .

على الناس . ففي الأُولى يستوي الحاكم والمحكوم لأن الحاكم الحقيقي هو الله سبحانه بتشريعاته التي هي القانون الإلهي الذي لا يُفرِّقُ بين الناس والرقيب عليه هو الله سبحانه . وفي الثانية يكون الحاكم هو الفرد المتسلط الذي يمكنه أن يُسِنّ من التشريعات ما يسلب به حرية الناس ويعجل لهم العقاب . أما وجود مؤسسة لإدارة أحوال الناس في معاشِهم وسُبُل حياتهم الزراعية والصحية وتطويرها ومواصلاتهم وما إلى ذلك من حاجيات الناس ، أمرٌ تقتضيه الضرورة ، ولا يُنظَر إليها أنها مِن الدين أو أنَّ لها صفةً دينية ، وسمِّها ما شئت : إمارة ، حكومة ، دولة ، مملكة ، سلطنة ، إمبراطورية ، إلخ . ولكن ليس لمن يتولَّى أمراً من الأمور المُتعلِّقة بحياة الناس سلطةٌ دينية على الناس بسببها أو مَزيَّة عليهم . قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّه﴾[1] فالنبي هو الذي يُعين لهم المَلِك ؛ إذاً فليس للملِك سلطةٌ دينية . . بل يحكُمُه الدين الذي جاء به النبي ، كسائر الناس ، ولكن لا تُنفى عنه الإدارة الدنيوية على أمور العباد الحياتية وتطويرها . وليس له تسلُّط ديني على العباد يعطيه الحق في معاقبة من يُخالفه . فالانضباط قائم باتِّباع الشرع الذي هو الدين الذي ارتضاه الناس برغبتهم ، وهو كافٍ لقيام المجتمع الفاضل ، ولا مجال لتشريعاتٍ بَشريّة تستوجب

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٦ .

مخالفتها عقاباً على من لا ينصاع لها مهما أُلبِسَت من صفة دينية . ولا يوجد حقٌّ لشخص ليُشرِّع بِخلاف ما أنزَل الله ما يسلب الناس حرياتهم وحقوقهم ، مهما أعطى نفسه من الألقاب الدينية . بل يسري عليه ما يسري على الناس مما أنزل الله مِن شرعه . فيتحقق خلقُ المجتمع الفاضل الذي تزيِّنه الأخلاق التي بُعث النبي صلى الله وبارك عليه وآله ليُتَمِّمها .

والدولة إذا قامت وتحكُمُها الشرائع السماوية فالحاكم فيها لا ميزة له على أي فرد فيها مهما قل شأنه ، ولا فضل له عليه إلا بالتقوى التى عِلمُها عند الله . ولا يبطل ما يكون من أوامر وتشريع لانضباط العمل الصحي والاجتماعي والحركي مما يتعارف عليه الناس على ألا يكون مخالِفاً لحقوق الإنسان التي شرعها الله لكرامته ، ولكن ليس لتلك الأوامر صفة دينية أو قداسة ربانية وأعلى سلطة فيها هي الدستور بسلطاته القضائية والتنفيذية التي يرتضيها الناس ويجمعون عليها لتوفر القيم الأخلاقية والصلاح والعلم ، فيُحكِّمونها برضاً وطواعية ، لا بإكراه وإجبار وتسلط .

من هم الَّذِينَ آمَنُواْ ؟

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

صدرت الإرادة الإلهية بتسمية قوم موسى بالذين هادوا وهم اليهود وقالوا : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[2] ، وقوم عيسى بالنصارى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾[3] وهم المسيحيون وكلّهم أهل كتاب . ولم يكن العرب ينتسبون إلى أيّ منهم فسمّوهم بالأُمِّيِّين وقالوا : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[4] لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب . وبُعث محمد صلى الله وبارك عليه وآله فيهم فسُمِّي النبي الأُمّيّ . ولم يُطلق عليهم اسم الأُمِّيين لعدم معرفتهم بالقراءة

---

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٦ .

(٣) سورة المائدة : ٨٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٧٥ .

والكتابة ؛ فقد كانت هناك مُعَلَّقات من الشِّعر في الكعبة المشرفة ، وكان هناك كُتّابُ الوحي . والسبب في أنّ أبابكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا من كُتَاب الوحي ليس هو عدم معرفتهما بالقراءة والكتابة ؛ بل لسُكناهما في السُّنح خارج المدينة[1] ؛ إذ كانا يتناوبان المجيء إليها . فقد وَرَد عن عمر رضي الله عنه أنّه كان يقرأ ورقةً مِن كتاب اليهود أمام النبي صلى الله وبارك عليه وآله حتى قال له النبي صلى الله وبارك عليه وآله : «أمُتَهوِّكون فيها يا ابن الخطاب»[2] . فما كانت هذه التسمية «الأُميين» إلا لأنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب . فلذلك تنتفي تسميتهم بالأميين بعد أن أنزل الله إليهم كتاباً فيه ذكرهم ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[3] وهكذا يبدو الاسم مرتبطاً بعدم وجود كتاب منزل إليهم قبل رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، قال تعالى ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿لِتُنذِرَ

---

(١) جاء في صحيح البخاري «أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ» وجاء في تفسير القرطبي «السنح (بضم أوله وسكون النون وقد تضم) : موضع بعوالي المدينة ، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج ، بينهما وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل» .

(٢) مسند أحمد .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠ .

(٤) سورة يس : ٦ .

قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[1] فمنهم من آمَن بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله ، وهؤلاء سُمّوا بـ«الذين آمنوا» كما سَمَّى اللهُ قومَ موسى بـ«الذين هادوا» وقوم عيسى بـ«النصارى» . وهذا التمايز بالأسماء لم يكن إلا نسبةً للحقب التاريخية للمسلمين وليس لأسباب دينية ؛ لأنّ كُل مَن آمن برسوله من اليهود والنصارى والذين آمنوا فهو مسلم . قال تعالى : ﴿ . . وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً . . .﴾[2] . ويتضح من هذه الآية الكريمة الفرق بين الذين كفروا والذين أوتوا الكتاب ، والمماثلة بين الذين في قلوبهم مرض والكافرين ، وبين الذين أوتوا الكتاب والذين آمنوا . لهذا فلا يصح تفسير «المغضوب عليهم» و«الضالين» في سورة الفاتحة بأنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى ؛ إنما هم المنافقون والكافرون . فالدين هو الإسلام ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[3] لأنّ جميع الأنبياء جاءوا بالدين فهُم مسلمون وكذلك أتباعهم مسلمون ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ

---

(١) سورة السجدة : ٣ .

(٢) سورة المدّثر : ٣١ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩ .

الَّذينَ أَسْلَمُواْ﴾[1] وقال تعالى ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ من قَبْله هُم به يُؤْمنُونَ * وَإذَا يُتْلَى عَلَيْهمْ قَالُوا آمَنَّا به إنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَا إنَّا كُنَّا من قَبْله مُسْلمينَ﴾[2] . فأهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم مسلمون كما بَيَّن ذلك القرآن العظيم ، والكُفّار هم الذين لم يؤمنوا برُسُلهم . ومَن يؤمن بأن عيسى عليه السلام مُسلمٌ وَجَبَ عليه القول بأن مَن يتَّبعه مُسلم كذلك ؛ إذ يستحيل أن يكون أنصار المُسلم وأتباعه كُفّار ؛ كذلك مَن يؤمن بأنّ موسى عليه السلام مُسلمٌ وَجَبَ عليه الإيمان بأنّ مَن يتَّبعونه مُسلمون .

فإذا كان من آمن بموسى عليه السلام مُسلماً ، ومن آمن بعيسى عليه السلام مُسلماً ، ومن آمن بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله مُسلماً ، أصبح من الضروري وجود تمييز في الاسم بين هذه الأُمَم المُسلمة للمُخاطَبة . ولا ينفي وجود اسم اليهود أو النصارى صفة الإسلام . كما أنّ إطلاق اسم المسلمين على قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله لا يميّزهم عن تلك الأمم المسلمة . فما جاء التمايز في التسمية للمسلمين في الرسالات المتعددة إلا نسبة للحقب التاريخية . فالدين كلّه واحد ولا نُفَرِّق بين أحد من رسله ، ونُقَدِّس كتبهم المُنزلة إليهم كما هو واجبٌ علينا ، ونُحبّهم .

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) سورة القصص : ٥٢-٥٣ .

فقوم النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله مَيَّزهم الله سبحانه عن بقية المسلمين في الأمم السابقة باسم الذين آمنوا . وأكَّد القرآن العظيم أنّ صفة المسلمين لا تنطبق عليهم وحدهم ، بل تنطبق أيضاً على أتباع موسى وعيسى ولوط عليهم السلام . قال تعالى : ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّه قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّه آمَنَّا بِاللّه وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّه فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[2] وقال تعالى عن أتباع لوط عليه السلام : ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3] . فأنزل الله سبحانه القرآن مخاطباً قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله بصيغة «الذين آمنوا» ، وليس بصيغة «يأيها المسلمون» أو «يأيها الذين أسلموا» ؛ لأنّ ذلك يشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اتبعوا رسلهم – لأنهم مسلمون أيضاً – وهؤلاء إذا توجّه الخطاب القرآني إليهم فإنّه يكون بصيغة «يا أهل الكتاب» – ولم يُخاطبهم بالأُمِّيين لأنّهم أصبحوا أهل كتاب بعد نزول القرآن إليهم ؛ ولم يخاطبهم بـ«يا أهل الكتاب» بعد ذلك لأنّ ذلك يُشير أيضاً إلى من سبقهم من الأُمم التي أُنزل إليها الكتاب . وكلُّ أمَّةٍ لها كتابها الذي أنزله الله إليها لتهتدي به

---

(١) سورة آل عمران : ٥٢ .

(٢) سورة يونس : ٨٤ .

(٣) سورة الذاريات : ٣٦ .

وتتحاكم إليه في هذه الدنيا ولا تعدل عنه ، بل تُقيمه كما هو واجبٌ عليها ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1] وهي مسؤولة عن كتابها هذا يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[2] ، أمّا مَن لم يؤمن منهم برسوله أو بأيٍّ من الرُّسُل أو الكُتُب المُنزلة من الله تعالى فهو ليس بمسلم بل هو كافر بما أنزل الله وبرسل الله . وعليه فحَصْرُ صِفة المسلمين على قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله فقط إنما هو سَلبٌ لها مِمَّنَ سَمَّاهم الله تعالى بالمسلمين من الأمم الأخرى . فكيف يجرؤ أحدٌ أن يجحد فعل الله ويُكفِّر من شهد الله له بالإسلام؟ فإنَّ مَن وَصَفَهُ الله بِصِفَةٍ لن ينفيها عنه الزمان أو الإنسان .

ولا يقولنّ أحد إنّ رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله جاءت ناسخةً لما قبلها من الرسالات ، فإنّ هذا مُعاكسٌ تماماً لما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فيما أنزله عليه الله سبحانه . فقد جاء النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[3] ، بل مَدح تلك الكُتب السابقة ؛ قال تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ

---

(١) سورة المائدة : ٦٦ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٨ .

(٣) سورة المائدة : ٤٨ .

مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾[1] . فما جاءت الرسل صلوات الله عليهم إلا بما يجلب المحبة بين البَشَر . وما جاءت الرسالات متناقضة ومتباغضة ، يُكفِّر بعضها بعضاً ، أو لتشحَن النفوس بذلك ليسفكوا دماء بعضهم بعضاً ، أو لخَلق العصبية الدينية المُخالفة لكلّ ما جاءت به الرسالات!! ولينظر أصحاب العصبية الدينية الذين يُفرِّقون بين الرُّسُل إلى فعل النبي صلى الله وبارك عليه وآله في وقوفه لجنازة اليهودي حينما مرَّت أمامه .

ولا يوجد ما يحصر اسم المُسلمين من النصارى على عهد عيسى عليه السلام فقط ، ولا يجوز لأحد أن يقول إنما المُسلمون من النصارى هم فقط الذين عاصروه قبل رَفعه ولكنهم ليسوا كذلك بعد بعثة محمد صلى اله وبارك عليه وآله! فأتباع عيسى عليه السلام هم أتباعه إلى يوم القيامة ، فعيسى عليه السلام لم يُقتَل ولم يُصلب ولم يُمت ، بل توَفَاه الله ورفعه إليه ، قال تعالى : ﴿ . . إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . .﴾[2] والله سبحانه لم يرفعه إليه ميتاً ، ولا تكون الرِفعة لميت ، فإن الله نفى الموت عن الشهداء لرفعة مكانتهم وهو أفضل منهم . فلا تكون الوفاة هنا إلا بمعنى النوم ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ

---

(١) سورة هود : ١٧ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] . فعيسى عليه السلام لم يُمت ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[2] ﴿ . . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[3] وهُم فوق الذين كفروا ؛ قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[4] . فهم مسلمون كما جاء في القرآن دون تحديد زمني . لكن يعدّ كافراً كلّ من رَفَض الإيمان بأحَد رُسُل الله – إن كان منهم أو من الذين آمنوا – لأنّ الله سبحانه أكّد بأنه ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[5] . فإن مَن رَفَض الإيمان بأيٍّ من رسل الله أو كُتُبه فقد تعصَّب وجَهِل وكفر بما أنزل الله . أما مَن صَدَّق بهم جميعاً فهو مسلم ومُطالَبٌ بإقامة الكتاب المُنزل على رسوله الذي آمن به لأنه من أمته ، قال تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[6] ، ولا يُجبر على العدول عنه لقوله تعالى : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة الزخرف : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ١٥٩ .

(٤) سورة آل عمران : ٥٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٦) سورة المائدة : ٤٧ .

إِلَى كِتَابِهَا﴾[1] . بل حتى الكافر لا يُجبَر على تركِ كُفره ، لقوله تعالى : ﴿ . . . وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[2] .

إنَّ حَصرَ صفةِ المسلمين على قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله تعني أن الإسلام لم يَبدأ إلاَ مع بعثةِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله أي في سنة اثني عشر وستمائة (٦١٢) بعد الميلاد ، وهذا جحود وإنكار لكلّ الرسل السابقين ورسالاتهم وأتباعهم الذين شهد الله لهم بالإسلام . بينما نوح عليه السلام قال : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3] وإبراهيم عليه السلام ﴿كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾[4] ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا . . .﴾[5] وتسميته هذه لكل أصحاب الديانات لأنّ الدين عند الله الإسلام . وحَصرُ صفة المسلمين على من بُعث فيهم محمد صلى الله وبارك عليه وآله فقط يتبعها نفيها عن أتباع لوط وعن قوم موسى وعيسى عليهم السلام ، وهذا يعني تكفيرهم كما أنها جحود لتسمية قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله بالذين آمنوا وهو الاسم الذي خاطبهم به القرآن . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ

---

(١) سورة الجاثية : ٢٨ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة يونس : ٧٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٦٧ .

(٥) سورة الحج : ٧٨ .

حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] . وهذا يدل على أنهم بحاجة إلى المحافظة على إسلامهم ، لا على أنهم صاروا من المؤمنين ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2] . فالذين آمنوا – أي المسلمون من قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله – عليهم قبول المسلمين من الأُمم السابقة والاعتراف بهم – ما لم يكفروا بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله وما أنزل عليه ، لأنهم إن فعلوا ذلك فقد فرَّقوا بين رُسُل الله – وعليهم الإيمان بما أنزل الله إليهم ، لا الاستخفاف به ونبذه ، وإن كفروا ، لأن كُفرهم لا يُغيِّر ما أنزَل الله ؛ ولا يجوز رفضُه بحُجَّة أنَّ بِهِ تحريفا . فالرَّفضُ يكون فقط للتحريف إن كان يوجد به – علمنا به أم لم نعلم – وأمرهم فيه إلى الله في الآخرة – قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[3] لأنّ الإسلام هو دين الله لكل الأنبياء . قال تعالى : ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة الحجرات : ١٤ .

(٣) سورة النساء : ١٣٦ .

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1] .

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] وهذا يعني أن المطلوب من الذين آمنوا هو أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ، كما هو مطلوب من اليهود والنصارى والصابئين . فيتضح من هذه الآية أن «الذين آمنوا» هم غير اليهود والنصارى والصابئة ، ومطلوب منهم كغيرهم أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ويعملوا الصالحات ليكونوا مؤمنين . فالمؤمنون هم القمم الاجتماعية لهذه الأمم : اليهود والنصارى والذين آمنوا والصابئة . ومجرد اسم «الذين آمنوا» لا يكسبهم صفة المؤمنين إنما هو اسمٌ خاطبهم به الله في كتابه العزيز تمييزاً لهم عن غيرهم من أهل الكتب السماوية لاشتراك الجميع في الإسلام ، وهو دين الله لأنبيائه الذي جاءت به رسلهم ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[3] ، ويوضح ذلك جلياً قول الحق تعالى في مُحكم التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

(١) سورة البقرة : ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة : ٦٢ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٥ .

وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾[1] ، فلفظة «الذين آمنوا» تعني قوماً مطلوب منهم الإيمان ولا تعني «المؤمنين» بالضرورة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .﴾[2] . ومطلوب منهم كذلك التوبة إلى الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾[3] ومطلوب منهم الإيمان برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾[4] ومطلوب منهم الأدب مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[5] ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾[6] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[7] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

---

(١) سورة النساء : ١٣٦ .

(٢) سورة الصف : ١٠-١١ .

(٣) سورة التحريم : ٨ .

(٤) سورة الحديد : ٢٨ .

(٥) سورة الحجرات : ٢ .

(٦) سورة النور : ٦٣ .

(٧) سورة الأحزاب : ٥٣ .

وَمَعْصِيَة الرَّسُول﴾[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذينَ آذَوْا مُوسَى﴾[2] ﴿أَلَمْ يَأْن لِلَّذينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لذكْرِ اللَّه﴾[3] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْليكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائكَةٌ غلَاظٌ شدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4] ويتضح من آيات المخاطبة هذه أنّ لفظة «الذين آمنوا» تعني مَن بُعث فيهم رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ولم يُقابلوا دعوته بالرَّفض والإنكار، وهُم مسلمون، ولا تعني وصفهم بالمؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّه أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[5] فالمؤمنون هم القِمم للأمم المُسلمة في كل الرسالات، وليس فوقهم إلا أهل اليقين، وهم الذين اتبَعوا الرُّسُل وانقادوا لهم وسلَّموا وعملوا الصالحات وآمنوا باليوم الآخر وما أُنزل إليهم من ربِّهم.

فما خاطب القرآن المجيد أتباع محمد صلى الله وبارك عليه وآله إلا بهذا الوصف «يأيها الذين آمنوا»، وليس بـ«يأيها المسلمون» أو بـ«يأيها الذين أسلموا» حتى لا يكون اسم

---

(١) سورة المجادلة : ٩ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦٩ .

(٣) سورة الحديد : ١٦ .

(٤) سورة التحريم : ٦ .

(٥) سورة الحجرات : ١٥ .

«المسلمين» محصوراً في أتباع محمد صلى الله وبارك عليه وآله . ولكنّ السّاسة وأصحاب السلطان من بعض العرب ما كان يُمكنهم التوسُّع في مملكتهم واستعمار الدول إلا إذا تمّ لهم إقناع شعوبهم بأنهم هم المُسلمون وليس غيرهم ، وعليهم توسيع رقعة الإسلام ، وذلك بتوسيع مفهوم الجهاد واستغلاله لحرب أهل الرسالات الأخرى ، باتهامهم لتلك الرسالات – التي أنزلها الله – أنها رسالات كافرة ألغَتها الرسالة المحمدية ، بدلاً من القول بأنّ الرسالة الخاتمة قد صدَّقت بها وأقرَّتها .

وقد كانت الروح القتالية هي السائدة عند العرب بين القبائل ، ويتحاربون لأتفَه الأسباب ويُغيرون على بعضهم للنَّهبِ والسَّلب . فكان في توجيهِ الروحِ القِتاليةِ تلك ، إلى بلادٍ أخرى أمانٌ للحُكام من الثورات الداخلَية ، إضافةً إلى توسيعِ المملكة والسلطان . فجاءت الأحاديث التي تُنادي بالحرب لنَشرِ الإسلام ، افتراءً عليه – لأنّ الإسلامَ رسالةُ السَّلام – ونُسِبَت للنبي صلى الله وبارك عليه وآله الذي لم تكن بعثته إلا لإتمام صالح الأخلاق ، وخَلقِ المجتمع الفاضل ، ورفض العدوان .

وانحرف القصد عن ما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله في مناداته بالسِّلم وإبراز الرحمة التي تسع كل شيء لسعادة الإنسان ، وتصديقه للرسالات السابقة فيما جاءت به الرُّسلُ وكُتُبُهم ، وبَسط الحريّة الكاملة لكل فرد . ولا إكراه في الدين ، فلا يُجبَر أحد على ترك دينه والدخول في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله بدعوى أنّ هذا هو الإسلام وغيره

كُفر ، بل لا يُجبَر كافر على ترك كُفره ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر﴾[1]!!

فنَسَبوا إليه صلى الله وبارك عليه وآله حديث «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . .»[2] ليشحنوا الناس بالعاطفة الدينية ويُشعِلوا بهم الحروب على أصحاب الرسالات المُسلِمة الأخرى التي أنزلها الله سبحانه ، معيبين ما أنزل الله تعالى من الدين في الأُمم السابقة ، ويرون باطلاً ما أنزله الله من الحق في كتبه المقدسة في تلك الرسالات التي أَرسَل بها كِرام رُسُله . ويتعلَّلون بوجود تحريف فيها ، دون أن يُعَيِّنوا مكان هذا التحريف . وحتى إن كان فيها تحريف ، فيجب الإيمان بها وتقديسها ورفض التحريف بعد تعيينه ؛ لا رَفض الكُتب المُقدَّسة . ولكنّ حُب المُلك والسلطان أعماهم ، وما فعلوا ذلك إلا لغرض توسيع ممالكهم واستعمار الآخرين ، فيُطلقوا عليها اسم الفتوحات الإسلامية حتى لا يفطن الناس إلى أنها استعمار عربي لا شأن للإسلام به . ولا يوجد قتال في الإسلام إلا لمن يعتدي ؛ قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[3] .

والدعوة إلى الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله صلى

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة البقرة : ١٩٠ .

الله وبارك عليه وآله لا تتعدّى التبليغ فقط ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[1] ، وكذلك كانت دعوة الرسل السابقين كلهم ؛ قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[2] فما كانت رسالاتهم إلى البشرية بالحروب والقتال ، إنما دعوة إلى الله بحُسن الخُلُق والموعظة الحسنة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[3] . فما جاء خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله – الرحمة المُهداة – لإدخال الناس في الدين بالقتال والحروب ، أو بغير ما كان عليه أولئك الرسل ، قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[4] . والقول بِنشر الإسلام بالحروب دعوةٌ باطلة لا يسندها الدين – لا في القرآن العظيم ولا سيرة النبي المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله . وقد يتعلل البعض بأنّ حرب النبي صلى الله وبارك عليه وآله على اليهود في الجزيرة العربية كانت لنشر الإسلام المُحمدي . ولكن المُتَمَعِّن في تلك الحروب يجد أنها ما كانت لإجبار اليهود على ترك دينهم وكتابهم وإدخالهم في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله . وإنما كانت رداً على أسبابٍ استدعت ذلك ولم تكُن ابتداءً بعُدوان ؛ قال تعالى :

---

(١) سورة النور : ٥٤ .

(٢) سورة النحل : ٣٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٤) سورة آل عمران : ١٤٤ .

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .

فحربُ بني قينقاع أشعَلَها اعتداء اليهود ، في سوقهم للصَّاغة ، على امرأة مُسلِمة ، وتطورت بسبب ردود الفعل من الفريقين إلى حرب انتهت بعفو النبي صلى الله وبارك عليه وآله عليهم جميعاً ، إكراماً لعبد الله بن أُبَي بن سلول الذي استَشفَع فيهم عند نبي الرحمة . وأما حربُ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لبني قُرَيظة فَسَببُها أن اليهود دَعوا وحَرَّضوا قريشاً وغَطفان ، وحزَّبوا القبائل على حربِ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . ولّما جاءت الأحزاب لحِصار المدينة ، أعلَنَ يهود بني قُريظة نقضَهُم لعهدهم مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، ومالأوا قُريشاً على حربِه ؛ وكان هذا سَبَب حِصارِهم . وبعد الحصار اختاروا تحكيم سعد بن مُعاذ – زعيم الأوس – بينهم وبين رسول الله ؛ لأنهم كانوا حُلفاء للأوس كما كان بنو قينقاع حلفاءَ للخزرج ، علَّهُ يستشفع لهم عند رسول الله كما استشفَعَ عبد الله بن سلول لبَني قينُقاع . فَحَكَم عليهم مَن اختاروه للتَّحكيم بالقَتل والسَّبي ؛ ومهما كان الحُكم فهُم الذين اختاروه . وأما بنو المُصطلق ، فقد حشدوا جيوشهم لقتال النبي صلى الله وبارك عليه وآله فخرج إليهم والتقى الفريقان وانتصر الرسول صلى الله وبارك عليه وآله . فما

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

كانت حروب النبي صلى الله وبارك عليه وآله مع اليهود لأجل تَرك دينهم وإجبارهم على قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإنّ هذه يُدعى إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] . ولا تستقيم الدعوة بالعُدوان والحرب والإكراه ، وصاحب الدعوة يقول : «إنما بُعِثتُ لأُتَمِّم صالح الأخلاق»[2] . وإذا كان هذا الدين هو الأفضل للإنسانية فلا يحتاج إلى إجبار الناس عليه ؛ لأنّ الأفضل جاذبٌ بطبعه للأَخذ به . أما حديث «لا يَجتَمع دينان في جزيرة العرب»[3] فلا تَصِح نسبته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لأنه لا معنى له . فالدين عند الله واحد ، وهو الإسلام ، وهو الذي جاءت به كلّ رسل الله . فلَم يجىء نبي من عند الله إلا بالدين ، فدين الله لَم يتغيَّر بين رسول ورسول ، قال تعالى : ﴿ . . . لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[4] .

وما سُمِّي بالفتوحات الإسلامية كلُّه عُدوان ، وعلى أصحاب دين أنزله اللهُ إليهم عن طريق رُسله الكرام موسى وعيسى عليهم السلام . وغَطَّت تلك الحروب الاستعمارية

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) مسند أحمد .

(٣) موطأ مالك .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥ .

بصائر الناس وعقولهم عن رؤية سماحة الإسلام وعظمته الذي جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله من المحبة لموسى عليه السلام وكتابه ولعيسى عليه السلام وكتابه ، والسِّلم والحرية للإنسان في مُعتقده ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ، وغيَّرت صورة الدين الذي جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، وأصبح الطرح عكس ما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله جاء مُصدِّقاً للتوراة والإنجيل ولموسى وعيسى عليهم السلام ، وقال إنّهم إخوة له . أما أصحابُ ما سُمِّي بالفتوحات الإسلامية فقد جعلوا العداوة بينهم وبين الرسالات السابقة شِعاراً وسَمُّوا أنفسهم بالمسلمين ليُكفِّروا أولئك المسلمين مِن أصحابِ الرسالات السابقة التي صَدَّق عليها رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وعلى كُتُبها ورُسُلها . وتعامَلوا مع تلك الأُمم المُسلمة على أن أسماءها («اليهود» و«النصارى») أسماء كُفريَّة لا تُشير إلى أنهم مسلمون ، وهكذا أخرجوهم عن دائرة الإسلام . وتَخَلُّوا هم عن الاسم الذي خاطَبهم به القرآن ، وهو «الذين آمنوا» ليقولوا : نحن فقط المُسلمون . وجعلوا من الإسلام المحمدي ديناً يُناطِح ما سَبَقه من دين الله ولا يَعترف به ، ويُكفِّر مُعتَنِقيه . فقلبوا صورة الإسلام المحمدي وأصبح الطرح الذي يقولون عنه إسلامياً

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

مُضاداً لما جاء به رسول الله وما أنزل الله في مُحكم تنزيله .

صَحِبَ هذا الطرح الجديد الاستعماري المُسمى بالفتوحات الإسلامية كَمٌ هائل من الترهيب والقَمع حتى لا يجرؤ أحَدٌ على القول بعدم صحة ذلك . وجاؤوا بأحاديث تعضد ما ذهبوا إليه على الرغم من أنها تُعارض القرآن وسيرة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله . وفرضوا الجزية على تلك الأُمم المسلمة من اليهود والنصارى (الذين أُوتوا الكتاب) إذ عدّوها كافرة ولم يُفرِّقوا بين الكافر والمُسلم منهم ، بينما القرآن قد حدَّد مَن الذي تُفرَض عليه الجزية ، وهُم الكُفّار منهُم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ؛ قال تعالى : ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1] ، وواضح من هذا النص أنَّ الجزية على الذين كفروا من أهل الكتاب وليس أهل الكتاب كلهم كافرين ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] ﴿ . . . وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا

---

(١) سورة التوبة : ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١١٣-١١٤ .

أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشعينَ للّه لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّه ثَمَناً قَليلاً أُوْلَـئكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1] . كما أن الذين آمنوا ليسوا كلهم مؤمنين ، فقد كان بين أصحاب النبي صلى الله وبارك عليه وآله منافقون ؛ وأنزل الله تعالى سورةً في القرآن باسمهم ، وجاء عنه صلى الله وبارك عليه وآله «في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»[2] وقال تعالى مُخاطباً الذين آمنوا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّه أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[3] وهذا ليس نهيٌ عن النفاق فقط ، بل تقريعٌ على شَناعَةِ ما يفعلونه من هذا السلوك والنِّفاق الذي يمقته الله سبحانه ممن خاطَبَهم بقوله : «يأيها الذين آمنوا» ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصيَةِ الرَّسُولِ﴾[4] فالمُناجاة التي نُهي عنها الذين آمنوا هي ﴿ . . . الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصيَةِ الرَّسُولِ﴾[5] فهل بقي ذنبٌ أكبر من هذه؟ وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٩ .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة الصف : ٢-٣ .

(٤) سورة المجادلة : ٩ .

(٥) سورة المجادلة : ٩ .

نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[1] .

وأُعطي الحكام قداسةً بالتَّسلُّط تجعل منهم أئمة على المسلمين كافَّة ، والقَتلُ مصيرُ كُلِّ مَن يُخالفهُم الرأي ، كأن رأيَهم هو الدين المُنزَل من الله . ووُضِعَت أحاديث لتقديسهم بالسَّمع والطاعةِ ولو كان الحاكم فاجراً وأخَذَ مالَكَ وضَرَبك على قفَاك!! ونَسَبوا لمن بُعث ليُتمِّم صالح الأخلاق حديث «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[2] ولم يقل الحديث «رجلٌ حبشي» كأنما صفة الأحباش أن يكونوا عبيدا . بينما جاء الإسلام أصلاً لتحرير الإنسان من الاستعباد ، فلا يُتَوقَّع ممن جاء ليُحرر الإنسان أن يَصدُر منه ما يُسيء إلى الإنسان ، مثلما جاء في هذا الحديث الذي يسيء إلى سكان بلد بأكمله!! وكيف يُنسى أن أول من استقبل المهاجرين المسلمين من عنت قريش هو النجاشي ملك الحبشة ، وأن الرسول صلى اللّه وبارك عليه وآله كان يدعو له ويقدّره وصلى عليه صلاة الغائب بعد موته . فقد جاء في القرآن العظيم احترام الإنسانية ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[3] . وأصبح الإسلام عندهم يعني السلطة ، والذي على

(١) سورة النساء : ١٣٦ .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) سورة الإسراء : ٧٠ .

رأس السلطة هو أمير المؤمنين ، وقوله هو الدين ، ومن يخالفه فهو من الهالكين ، ولو كان من أبناء النبي الأمين . وصدق رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله القائل : «إنّ الكتاب والسلطان سيفترقان»[1] ، وصدَقت نبوءة مَن لا ينطق عن هوى . قال تعالى : ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾[2] . وجَلَب الحاكم حوله أهل العلم ليُشَرِّعوا له ديناً يناسب هواه ، وربما قال لأحَدِهم اعمل لي مذهباً ووَطِّئه بين التَّشدُّد والرُّخَص[3] ، ثم يصادر حرية الفكر ويأمر : «لا يُفتى ومالك بالمدينة» . وأصبح الدين يؤخذ من علماء السلطان الذين يُصدرون الفتوى للسلطان فيما يُريد فعله ؛ ليكون ذلك من الدين وتكون أفعال الحاكم كلها مشروعة ، حتى سفك دماء المُعارضين في الرأي بإصدار فتوى أنهم ضد الدين . ولا يُلتَفَت لقول الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر﴾[4] ولا لسيرة المعصوم صلى الله

---

(١) مجمع الزوائد .

(٢) سورة التوبة : ٩٧ .

(٣) حين أشار الخليفة المنصور على مالك بتأليف الموطأ قال له : «يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة» – تاريخ بن خلدون .

(٤) سورة الكهف : ٢٩ .

وبارك عليه وآله ، الذي قال لمُشركي مكة حين فتحها : «اذهبوا فأنتم الطُلقاء»[1] ولم يأمرهم بقول لا إله إلا الله!! وتبرّأ مِن قَتل خالد بن الوليد لبعض مُشركي مكة حين فتحها وقال : «اللهم إني أبرأُ إليك مما صَنَع خالد بن الوليد»[2] .

وأصبح الدين تبعاً للإرادة السياسية ، والحاكم هو خليفة المُسلمين وهو الراعي للدين والمسئول عنه ولا يُعصى أبداً . فالفتوى تُحرِّم معصية الحاكم ، فقد أصبح مُقدَّساً والخروج عليه يعني الخروج على الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . كأنه هو رأس الإسلام ولو كان بليداً لا يفقه شيئاً ، وأنه لا يوجد على وجه الأرض دينٌ غير الذي عليه هذا الحاكم . وتصدر الفتوى بِكُفر كل الرسالات الأخرى وقتل مُعتنقيها إن لم يُسَلِّموا لهذا الحاكم ، وبأن لا قداسة لكتبهم المُنزلة ورُبما تُحَرَّق ويُداس عليها بالأرجُل ، ويُجَرَّدوا من اسم المُسلمين الذي وصفهم به الله سبحانه ، ولا يُطلق إلا على أتباع ذلك الحاكم . ولا يلتَفِتُ أحدٌ إلى سماحة الإسلام الذي جاءت به الرسل الكرام وصدَّق عليه خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله . بل أصبح الأمر للسّاسة والحُكام ليُشرِّعوا من الدين ما لم يأذن به الله . وإذا ذُكِّروا بالقرآن العظيم وتُليت عليهم آياته وقيل لهم إنّ الله سبحانه يقول في محكم تنزيله

---

(١) سنن البيهقي الكبرى .

(٢) صحيح البخاري . .

﴿ . . . وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر﴾[1] ، فَسَّروا قول الله هذا – من عندهم – بعكس ما يُفهم منه وقالوا : لا ، مَن يكفر يُقتَل . وإذا قيل لهم قال الله : ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2] فسَّروها كذلك بعكس ما يُفهَم منها وقالوا : لا ، بل ندعو بالقتال والسيف . وإذا قيل لهم : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[3] قالوا : لا ، بل لا بد من تكوين دولة للقتال لنشر الإسلام . فهل هذا اتِّباعٌ لما أَنزَل الله؟ وإذا قيل لهم إنّ مَن عصى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فلا عقاب عليه في هذه الدنيا – قال تعالى : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4] – وغاية عقابه في الدنيا أن يَتَبَرّأ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله من فعله ، قالوا : مَن يعص الحاكم فمصيره القتل أو يودَع في غياهب السجون . هذا ما كان من أمر القرآن . أما من حيث السيرة ، فإذا قيل لهم إن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لم يُقاتِل لفرض الإسلام على الناس قالوا : لا ، بل كانت له غَزَواتٌ منها بَدر الكبرى وأُحُد والخندق ؛ وتَفضَح الحقيقةُ زعمَهم هذا ؛ لأنها كانت دفاعاً عن المدينة ولم تكن غزواتٍ لنشر الإسلام .

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) سورة النور : ٥٤ .

(٤) سورة الشعراء : ٢١٦ .

ولربما قالوا إنّ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله وَضَعَ الأساس للدولة الإسلامية ، ليأتي من بعده مَن يُكمل إنشاء الدولة ، بتجاهُل أو رَفْض لقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا﴾[1] . وإذا كان هذا اعتقادهم ، فإنهم يجعلون لمن يؤسِّس للدولة ويوسع مرافقها مكانةً في نفوسهم أكبر من تلك التي كانت لمن يعتقدون أنه أنشأ دولةً بدائية لم تكتمل مؤسّساتها ، فهذا الذي أسس للدولة ووسع مرافقها لا يسلك فجاً إلا سلك الشيطان فجّاً غيره[2] ، والآخر عندهم يقاتله الشيطان في صلاته حتى يضطر لخنقه[3] . وأصبح الدين عندهم هو الدولة ، ورأسُها هو رأس الدين ، وله من القداسة ما كانت لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! كأنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله كان رئيساً للدولة أو حاكماً مُطلقاً!! بل وُضعَ من الأحاديث ما يُجَرِّد الذَات الشريفة المُحمدية عمَّا حَباها الله به من التّبجيل والقداسة ، التي بلغت من القدر دَرَجةَ إحباط كل العمل لمجرد رفع الصوت في حضرته صلى الله وبارك عليه وآله . وحرصوا على إظهارها بالشخصية العادية التي تُخطئ في أداء رسالتها ، فيصحِّحها بعض الأصحاب ، حتى لا يُرى فرقٌ كبير

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

(٢) صحيح البخاري . .

(٣) صحيح البخاري ومجمع الزوائد . .

بين رسـول الله صلى الله وبارك عليـه وآله ومن جـاء بعـده من الحكام ، بل ربما جعلوا لذلك الحاكم أفضلية في بعض المواقف ، وجاءوا بقاعدة «وَقَدْ يَكُونُ فِي الْمَفْضُولِ مَزِيَّةٌ بَلْ مَزَايَا لاَ تُوجَدُ فِي الْفَاضِلِ»[1] ؛ وذلك لِدعم حُجَجِهِم الواهية لتبرير مواقف أحد أمراء المؤمنين في مقابلة فعل رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله[2] ، ولو كان ذلك الأمير ينفي أحد رعاياه[3] لمجرد أنّ الله سبحانه خلقه جميلاً حسن الصورة!! . وأصبحت القداسة لكلّ مَن يستطيع أن يفرض حُكمَه على الناس ويُسمِّي نفسه أميراً أو خليفةً على المُسلمين!! وأصبحت الدولة وما يصدر فيها من تشريع هي الإسلام ، ولو كان مُغايراً لما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . وقد يُغَيِّر هذا التشريعُ حُدود الله ، فيُغَيِّر حدّ شُرب الخمر مِن أربعين إلى ثمانين جلدة ، وتُعَدَّل مصارف الزكاة إلى أن تشمل التَّبرُّع للأندية الرياضية ، وتؤخذ الزكاة مِمَّن لا يملك النصاب بِضَم ما عنده إلى جاره ليكتمل النصاب ثم تؤخذ منه الزكاة ، ومَن لم يدفعها يُقدَّم لمحكمة خاصة يودَع بعدها السجن ليكون من الغارمين لديوان الزكاة!! ويوضَع قانونُ الزكاة كَأنّ الله سُبحانه لم يُبَيِّن مصارفها ، ولكنّ القانون يتوسَّع في التصرُّف في أموال الزكاة ليشمل التبرُّعات

---

(١) الفتاوى الفقهية الكبرى . .

(٢) في خطأهم الفادح في أمر أسرى بدر (راجع رسالتنا في أسرى بدر) . .

(٣) نصر بن حجاج . .

لأجهزة الدولة ، فشرَع الفُقَهاء من الدين ما لم يأذن به الله!! فهل يُريدون بذلك حقاً وجه الله؟ فالزكاة التي شَرَعها الله لمُساعدة المُحتاجين أصبحت تُدخِل المُحتاجين السجون! ولا غرابة في أن تسمع أن الزكاة ربحت هذا العام لأنها لم توزع على الفقراء في العام الفائت بل جُعلت في مؤسسة تجارية!! وكُل ذلك يصدر بفتوى مِن عُلماء الدولة فيَظهر بِمَظهر الدين والتشريع الإسلامي .

وليس لنا أن نقول بعد هذا إلا قول الحق : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾[1]

(١) سورة البقرة : ١٥٩ .